تقارير ومتابعات وتراجم

عنوان الكتاب: على خط النار. مذكرات الرئيس

المؤلف: برويز مشرف
الناشر: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر.

المدرس الدكتور
ستار جبار علاّي(*)

يشغل برويز مشرف منصب رئيس الباكستان منذ العام 1999، حين كان في عمر الاربع سنوات، انتقل الى كراتشي اثر تقسيم الهند وانشاء الباكستان. ومنذ ذاك الوقت وحياته مرتبطة بهذه البلد العزيز على قلبه. بعد مشاركته في اكاديمية الباكستان الحربية، اصبح مغواراً في مجموعة الخدمات الخاصة وهي مجموعة مغاوير رائدة، وشارك في الحروب مع الهند في عامي 1965و 1971.

ثم ترفع في منصبه ليصبح جنرالاً ومن بعدها قائداً للجيش في العام 1998، وبعد مواجهة درامية مع رئيس الوزراء نواز شريف، غداً رئيساً للباكستان ولايزال في مركزه حتى اليوم بالرغم من محاولتي اغتيال تعرض لهما.

يتألف الكتاب من مقدمة وستة ابواب تضمنت اثنان وثلاثون فصلاً، في مقدمة الكتاب نجد انه يفتح نافذة على دولة الباكستان المعاصرة، وعلى دوري (الرئيس برويز مشرف) في تشكيل هذه الدولة. لقد عشت حياة مفعمة بالحيوية والعاطفة، بل ربما حياة طائشة في سني حياتي المبكرة، لكني كنت دوماً اركز على تطوير نفسي وتحسين اوضاع وطني. وعلى الاسباب الدافعة وراء كتابة هذه السيرة يقول مشرف:

"قررت ان اكتب سيرتي الذاتية هذه، بعد ان احتلت الباكستان الموقع المركزي في النزاعات العالمية، بما في ذلك الحرب على الارهاب. ولقد ظهر على مسرح الاحداث فضول كبير، حيالي شخصياً وحيال الوطن الذي اقوده، وانا اريد ان اضع العالم وجهاً لوجه مع الحقيقة" ويضيف مشرف موضحاً "وسوف اتجنب معالجة القضايا الحساسة التي تقيد التعامل معها عوامل لها علاقة بالامن القومي".

في الباب الاول من الكتاب وفي الفصل الاول يصف الرئيس مشرف وصول عائلته من الهند الى باكستان بعد ان اصبح التقسيم واقعاً في شبه القارة الهندية في 14 آب (اغسطس) العام 1947. ويصف مشرف

(*)مدرس – مركز الدراسات الدولية -جامعة بغداد

الرحلة بقوله: "كانت تلك اوقاتاً عصيبة، اوقاتاً ذات شأن عظيم. كان نور الحرية يبزغ، وظلام القتل الجماعي يخيم عليها، ففي يوم صيفي حار ورطب، انطلق قطار عبر السهوب المغبرة من دلهي الى كراتشي" كان الطريق كله مليئاً بالجثث من الرجال والنساء والاطفال، الكثير منهم تعرض للتشويه البشع. كان المسافرون يتعلقون بشدة بحبل من الامل في حياة جديدة وبدايات جديدة في وطن جديد- الباكستان- وهو وطن فازوا به بعد كفاح مرير وتضحيات كبيرة" ويضيف مشرف "ولدت في منطقة المغول القديمة من دلهي في آب (اغسطس) العام 1943 في منزل.... على القنال من املاك جدي الاكبر الخان بهادور قاضي محتشم الدين... وقد علمت من عائلتي ان اسلاف ابي اتوا من العربية السعودية منذ اجيال عديدة".

وفي الباب الثاني من الكتاب يتناول الرئيس مشرف الحياة في الجيش ويقول عن ذلك "لم أكن قد تجاوزت الثامنة عشرة حين انتسبت الى اكاديمية الباكستان الحربية في العام 1961.... في مكان يسمى كاكول، قرب بلدة ابوت آباد نسبة الى أبوت وهو احد المفوضين البريطانيين".

"كانت تجربتي في كلية الباكستان الحربية شبيهة بعملية اعادة تأهيل، اذ تم تفكيكي بشكل كامل وأعيد تركيبي على نحو مختلف... تخرجت من الاكاديمية برتبة ملازم ثان.... واخترت ان انخرط في فوج سلاح مضادات الطائرات الخفيف السادس والثلاثين.... وهكذا بعد مضي ستة اشهر تقرر تعييني في فوج المدفعية الذاتية الدفع السادس عشر، ولم التحق ابداً بسلاح الدفاع الجوي، فقد بقيت في سلاح المدفعية. منذ ذلك الوقت كرست حياتي المهنية للجيش وللدفاع عن وطني".

وفي الباب الثالث من الكتاب يتناول مشرف دراما الاختطاف. وعن الاحداث التي وقعت يقول مشرف: "كان اليوم هو الثاني عشر من تشرين الاول/ أكتوبر 1999. وكانت عقارب الساعة تشير الى السادسة وخمس واربعين دقيقة مساءً، ورقم الرحلة 805 على الخطوط الجوية الباكستانية. كان على متن الطائرة "باص جوي" 198 راكباً كثير منهم تلاميذ مدرسة، وكنا على وشك الهبوط في غضون عشر دقائق" ويضيف مشرف "ان مراقبة الحركة الجوية لم تعط أي سبب لعدم السماح له بالهبوط في كراتشي، ولكنها كانت تأمره باصرار بالخروج من مجال الباكستان الجوي، على الفور، والهبوط في أي مكان خارجه.... لقد كان الامر الوحيد الذي يمكن ان اضمنه هو ان رئيس الوزراء شريف قد شرع بالتحرك ضدي، وكائناً من كان، فقد كان يعرض حياة أبرياء كثيرين للخطر، ولم اتمكن من معرفة القصة كاملة حتى انتهت الدراما في الجو".

لقد اخذ الجيش على حين غرة، بحركة رئيس الوزراء المفاجئة عندما اقدم على فصلي (مشرف)، واتبع هذا- في نهاية الامر- بتغييرات مفاجئة وعنيفة في

القيادة العسكرية العليا. لقد كان انقلابه هو، وكان ذلك سوء استخدام وسوء تطبيق فاضح للقانون، اذ ليس في وسعك ان تقيل قائد الجيش- المعين وفق الدستور- بصورة متسرعة ودون ابداء الاسباب الموجبة وبأجراءات قانونية. كان شريف يريد لذلك ان يكون الفصل الاخير قبل ان يأخذ كل السلطات لنفسه كرئيس للوزراء. رد الجيش بأنقلاب مضاد.

وعن الانقلاب العسكري الذي اطاح بحكومة نواز شريف يقول مشرف: "بدأ الانقلاب المضاد (وهذه أفضل عبارة يمكن ان نصف ما حدث) في الساعة الخامسة مساءً عندما بث التلفاز خبر اقصائي عن الجيش، اما عن الفترة التي استغرقها هذا الانقلاب فلم تتجاوز ثلاث ساعات ونصف الساعة، وانتهت في الساعة الثامنة والنصف مساءً بدخول الفريق محمود احمد، امر فيلق روالبندي منزل رئيس الوزراء ووضع نواز شريف رهن الاعتقال".

اما رد الجيش على محاولة نواز شريف الانقلابية، فلا ينبغي ان نراه كرد فعل لتصرف مذل آخر بحقهم فحسب، بل كان ذلك ايضاً رداً على الوضع المأساوي، الذي وصلت اليه البلاد، في عهد رئيس الوزراء، في كافة النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، حيث اوشكت الباكستان ان تصبح دولة فاشلة وعاجزة بل حتى ارهابية ايضاً... لكن نواز شريف، او من خلال التعديل الخامس عشر للدستور (قانون الشريعة). اراد اغتصاب كافة السلطات لينصب نفسه اميراً للمؤمنين، وراعياً لامورهم بسلطات دنيوية دكتاتورية ودينية بائدة.

وفي الباب الرابع من الكتاب وعنوانه اعادة بناء الامة يتناول مشرف عدة قضايا مهمة في مقدمتها دور الجيش في الحياة السياسية في باكستان "لقد اردنا جميعاً ان نضمن ان تكون هذه آخر مرة يضطر الجيش فيها تولي زمام الحكم في البلاد. فكان علينا اقامة نظام يكون فيه استيلاء الجيش على الحكم في المستقبل امراً مستحيلاً!

من المؤسف ان الديمقراطية الفعالة هي ما لم تحصل عليه الباكستان منذ ولادتها في 14آب/ اغسطس العام 1947 وافتقار البلاد لهذه الديمقراطية الفعالة هو اساس اغلب العيوب التي تعاني منها، ان ما اسسناه نحن في الباكستان عن قصد هو ليس حكم الشعب بل حكم اقلية مختارة. هذه ليست ديمقراطية، بل اوتوقراطية (حكومة استبدادية الفرد) في أغلب الاحيان، وحكومة بلوتوقراطية (حكومة الاثرياء) عادة، وفي الفترة الاخيرة كليبتوقراطية (حكومة النشالين). وهذه كلها تعمل بعقلية النظام الاقطاعي العشائري"بأسم الشعب" متخفياً وراء غطاء الديمقراطية.

واذا اخذنا في الاعتبار تنوع التاريخ السياسي للباكستان، والتداول بين القانون العرفي والديمقراطية المزيفة، فأن الطريق الى الديمقراطية الحقيقية كان صعباً

يتطلب السير في مسارات عديدة مختلفة في آن واحد. فمن الواضح غياب الديمقراطية على مستوى القواعد الشعبية وغياب المحاسبة الفعالة والتوازن عند اصحاب السلطات الثلاث في الباكستان: رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ورئيس اركان الجيش. كان هؤلاء يشكلون العراقيل الرئيسة لديمقراطية قابلة للبقاء. وكانت كل واحدة من هذه المشكلات بحاجة الى حل.

وفي الباب الخامس يتناول الكتاب الحرب على الارهاب، فبعد احداث 11 أيلول/ سبتمبر 2001 قمت بتحليل خال من العاطفة وبأسلوب عسكري للخيارات المتاحة لنا، ووازنت بين ما هو معنا وما هو ضدنا.

ان المسألة ليست في ان نقرر اذا ما كنا مع امريكا او مع الارهابيين وحسب، ولكن اذا اخترنا الارهابيين، فأن علينا ان نتوقع ان تدمرنا القنابل بحيث نعود الى العصر الحجري. وكان قراري (مشرف) على سلامة شعبي، ومصالح بلادي، فالباكستان اولاً.

ان القاء القبض على بن لادن هو مسألة وقت، واذا كان لي (مشرف) ان اضمن، فأنا اظن انه ينتقل في مكان ما على الحدود الباكستانية الافغانية. ان وجود عدد كبير من السعوديين في منطقة كويتا ربما يوحي ان هذه هي المنطقة التي يختبئ فيها أسامة بن لادن، ولكننا لسنا متأكدين من ذلك؟

لقد لعبنا لعبة القط والفأر ضد الارهابيين منذ فترة قصيرة بعد 11أيلول/ سبتمبر، عندما هرب كثير من اعضاء القاعدة من افغانستان وعبروا الحدود الى الباكستان، وقد القينا القبض على الكثير منهم، فقبضنا على 689 شخصاً وسلمنا 369 منهم الى الولايات المتحدة وحصلنا على مكافآت تصل الى ملايين الدولارات.

وللاطلاع على قصة اكثر دقة عن طبيعة الحرب على الارهاب في الباكستان، يجب ان نعود الى25 كانون الاول/ ديسمبر 2003، مباشرة بعد نجاتي (مشرف) من هجوم بالقنابل على موكب السيارات الذي كنت فيه.

وفي الباب السادس يتناول الكتاب الباكستان: الداخل والخارج. ان منطقة جنوب آسيا هي منطلق الشرارة النووية التي تهدد العالم. والآن ومنذ ان التحقت الباكستان بالنادي النووي بعد ان فعلت الهند ذلك، فأن العالم يحبس انفاسه قلقاً عند كل مواجهة بين البلدين. ان الواقع النووي الخطير الذي يكمن في هذه المواجهة قد تم تأكيده عندما قامت الهند بتفجير خمس قنابل نووية في يوم 11آيار/ مايو ويوم 13آيار/ مايو العام 1998، فردت الباكستان بالمثل في 28آيار/ مايو و30آيار/ مايو بتفجير ست قنابل نووية.

جاءت الادانة العالمية الاقوى سنة 1998 لان الباكستان كانت أول دولة اسلامية تصبح دولة نووية. وبدأ ذلك امراً غير منصف تماماً بالنسبة للباكستانيين.

ترجمة

وبالتأكيد فأن أي دولة يمتلك خصمها الرئيسي القنبلة النووية كانت ستفعل ما فعلناه نحن. اذ كنا ندرك انه لا يمكننا الاعتماد على الحماية الامريكية وحدها.

ان أي محاولة لوقف العنف تحتاج الى حل دولي. فالهيجان في العالم الاسلامي ينبع في الاساس من نزاعات سياسية طال بها الزمن دون حل، مما خلق شعوراً بالظلم والاغتراب والحرمان والعجز واليأس بين صفوف الجماهير، ومما يزيد الامر تعقيداً هو ان الدول الاسلامية فيه تعاني من اسوأ الاحوال الاجتماعية في العالم. فالحرمان السياسي، جنباً الى جنب مع الفقر والامية- خلق مزيجاً متفجراً من التطرف والارهاب.

والسلام في جنوب آسيا جوهري لتحقيق السلام العالمي وخاصة بالنسبة للعالم الاسلامي. فالنزاع الهندي الباكستاني يعيق التعاون الاجتماعي- الاقتصادي وكذلك التنمية في جنوب آسيا.

ومن الآن وصاعداً لن تستطيع الاعمال العسكرية تحقيق شيء آخر. اذ لا يوجد حل عسكري لمشاكلنا. فالطريق الى الامام يمر عبر الدبلوماسية. وامام الباكستان طريق طويل، لقد قطعنا خطوات كبيرة الى الامام. لكننا لا نستطيع الخلود الى الراحة فالعزيمة والاصرار والحماس الوطني المخلص سوف تصبح- بأذن الله- دولة اسلامية حيوية تقدمية معتدلة، وعضواً نافعاً في المجتمع الدولي، دولة يحتذى بها، لا دولة ينفر منها الآخرون.